

المقطف

الجزء الخامس من المجلد الثاني والثلاثين

١ مايو (أيار) سنة ١٩٠٧ - الموافق ١٨ ربيع أول سنة ١٣٢٥

الفلسفة العملية

الاستاذ ولیم جس الاميركي من أكبر فلاسفة المصروف قد قام الآن بخطب في موضوع سماه البرغماتزم Pragmatism اي الفلسفة العملية كأنه يقول ان ما كان من الفلسفة عملياً فهو الفلسفة الحقيقية وما سواه اوهام وسنلخص خطبة مقتطفين منها ما يسهل تناولها على جميع القراء ابتداءً من خطبة الاولى بتقريب لتستترين قال فيها "انا نحب ان ام شيء لقائد الجيش اذا وقت امام عدوه ان يعرف عدد جيش العدو ولكن هناك ما هو اهم من ذلك وهو ان يعرف ما هي فلسفة العدو" اي ان يعرف كيف ينظر عدوه الى الحياة والمعاد ثم قال الخطيب ان المواضيع الفلسفية غامضة عويصة ولكن الناس يملكون الى الخوض فيها. وتاريخ الفلسفة مؤلف أكثره من مناقضات الفلاسفة المبينة على اختلاف امزجتهم وكثيراً ما يحاول الفيلسوف او المشتغل بالفلسفة ان ينجح تأثير مزاجه في اقواله وآرائه ولكن المزاج لا يغلب بل يحرق الأدلة على مقتضاه وهذا هو هوئ النفس الذي يستسلم له المرء غشياً عنه فيمتد ان يكون جاز حسب هواه وهو على هدى وكل الذين يخالطونه على ضلال وهذا الحكم خاص بكبار الفلاسفة الذين لهم في الفلسفة مذاهب معلومة مثل افلاطون ولوك وهيجل وسينر اما جمهور الباحثين في الفلسفة فليس لهم مزاج ففسي سلموه بل آرائهم ومعتقداتهم الفلسفية خليط من آراء غيرهم ومعتقدات غيرهم ولما يعرفون ما ينظرونه على غيره من هذه الآراء والمعتقدات وكثيراً ما ينزعون عن رأي الى ضدوه على اسهل سبيل كأن الآراء من الازياء التي تتغير بتغير الزمان والمكان.

والناس على هذا النمط من اختلاف الامزجة في كل المطالب في الحياة ترى الشدة الذي لا يجعل تغيير السلطة والتوضوي الذي خلق كل سلطة. وفي الانشاء ترى المتله الذي لا يجيد عما كان عليه السلف والمجتهد الذي يسير على خطه بخطها لنفسه وفي الاخلاق

تري من تتبع القواعد المفروضة لذلك ومن يجاري الزمان ولا يجيع إلا ما يرشده اليه عقله
والفلاسفة مقسومون الى فريقين كبيرين اهل النظر واهل العمل فاهل النظر هم الذين
يشرون احكامهم على مبادئ النظرية المبردة واهل العمل هم الذين ينوب احكامهم على
الحوادث الفعلية . وما من احد يستطيع ان يعيش ساعة من غير الاعتماد على المبادئ النظرية
والحوادث الفعلية ومع ذلك ترى الناس ينقسمون هذا الانقسام في الاعتماد عليها ويختلفون
ويتشاحون بسبب ما في امرجتهن من الميل الى تفضيل هذه الجهة او تلك . وقد انقسموا الى
فريقين كبيرين كالفلاسفة ولقبوا انفسهم القاباً مختلفة بعضها فمن الفريق الاول او اهل
النظر الضميلة والصورية والثألية والدينية والتقديرية . ومن الفريق الثاني او اهل العمل
الحسية والمادية والثورية والرافضة والحبرية . وعندني ان الفريق الاول اي اهل النظر
عقروهم او امرجتهن سهلة المراس والتريق الثاني اي اهل العمل عقولهم او امرجتهن صعبة
المراس وكل فريق من هذين الفريقين يحسب انه على هدى وبقية على ضلال . والجمهور
بين بين يميلون تارة الى هؤلاء وتارة الى هؤلاء بحسب ما يستحسنونه او يستهجنونه من اعمالهم
وتعاليمهم فمرام قدرية او جبرية حسب ميلهم الى الاعتقاد بانهم احرار الارادة يتعلمون
ما يشاؤون او يتقيدون بارادة الخالق لا يفعلون الا ما قدر لهم فعله

والظاهر ان اهل العمل من الفلاسفة ومريدتهم صاروا الآن اكثر مما كانوا في العصور
السالفة لكنهم اميل الى الدين مما ينظر من الفلاسفة الماديين
وقد منى الآن مئة وخمسون سنة والعلوم تأول الى تكبير العالم المادي وتمخير الانسان
بالنسبة اليه وتثبت ان الطبيعة لا تدبر مرضاة للانسان بل هي ثابتة وعلى الانسان ان يجري
حسب مرضاتها وزال ما كنا نترحمه من انا احرار مطلقون في هذا الكون فنمل يوم ما نشاء
فيجري طوع ارادتنا . ولا نريد ان نكون ماديين ولكننا لا نتخلص من هذه الوصمة الا اذا
اغضينا الطرف عن كثير مما نعده حقيقياً في الحياة لاننا لا نستطيع ان نتصور ما هو غير
مادي الا بواسطة المادي حتى الخالق سبحانه لا يمكننا ان نتصور وجوده الا من شعورنا
بمخوقاته كان شعورنا بوجود اختلافات المادية شرط لازم لاعتقادنا بوجود الخالق غير المادي
والفلاسفة الذين حاولوا التوفيق بين مبادئ الفلاسفة النظرية ومخفيات العمل
والاخبار جروا غالباً على خطة غريبة مستهجنة مثال ذلك ان لينس كان من زعماء الفلاسفة
النظرية ونكته كان ايضا يقف عند الخلقائق الفعلية ويحاول التوفيق بين الطرفين كما
استدل على رحمة الخالق من قلة عدد الماتكين حيث قال

ان الشريهر كلاشي . بالنسبة الى اثير اذا اعتبرنا سعة مدينة الله . فان التساه لم يكونوا يعرفون عظم اعمال الله فكأنوا يظنون الارض وحدها مسكونة وقد ارتابوا في وجود الناس على الجهة المتابلة منها وكانوا يحسبون بقية العوالم كرات مشرقة وكواكب درية اما الآن فهما كان حد الكون الذي نعلم به فلا شبهة ان فيه كرات لا تحصى وكل منها مثل كرتنا الارضية او اكبر منها ولما حق ان تكون مسكونة بتخلوقات عاتلة مثل ارضنا ولو لم يكونوا كلهم بشرًا مثلنا . وارضنا سيار من السيارات السة التابعة للشمس . والنجوم الثوابت شموس كلها فما اعتبر ارضنا في جنب العالم المنظور لانها لا تخرج عن كونها تابعة من توابع شمس من هذه الشموس . وقد تكون هذه الشموس كلها مسكونة وسكانها من اهل السعادة . فلا شي يوجب علينا اذا ان ننفذ كثرة عدد الملائكين لان عددًا قليلًا منهم يكفي لاظهار اثير الذي ينتج من الشر . ثم انه ليس من الضروري ان تكون النجوم موجودة في كل مكان افلا يمكن ان يكون وراءها فضاء خالي منها وان يكون ذلك انفضاه الواسع مملوءا بالسعادة والمجد . فامر شأن ارضنا وسكانها ألا تصير هي وهم اصغر من نقطة واحدة في هذا الكون الواسع وهي في الحقيقة ليست سوى نقطة بالنسبة الى يد النجوم الثوابت . ولذلك فالجزء الذي نعرفه من العالم لا يجب شيئًا مذكورًا بالنسبة الى العالم الذي لا نعرفه ولكننا مضطرون الى التسليم بوجوده وكل الشرور التي تعربها محصورة في ارضنا هذه التي هي كلاشي بالنسبة الى غيرها من العوالم ينتج عن ذلك ان الشر قد لا يكون شيئًا مذكورًا في جانب اثير الموجود في العالم .

وقال في مكان آخر من العدل ما لا يقصد به اصلاح الجرم ولا جعله عبرة لغيره ولا التوبيخ على الجرم البويل يقصد به مجرد ارضاء العدل بقصاص الجرم . ومن هذا القبيل العدل او الانتقام الذي حفظه الله لنفسه وهو يرعي الجرم ويسر كل حكم ينظر اليه كما يسر الظل المستبر بالنساء الحسن الايقاع والبناء الحسن المتدام وعلى هذا الاساس يدوم جذاب الخطاة ولو لم يكن منه فائدة في ارجاع احد منهم عن خطاياهم ويدوم ثواب الصالحين ولو لم يثبت احدًا منهم في طريق الصلاح والامر ان صلحان على حد سواء لان الله صنع كل شئ كاملاً وعلى تمام الانتظام .

ولا يخفى ما في هذا الاحتجاج من الضعف والظاهر ان لينتس لم يتصور قط الحالة التي يكون فيها من يحكم عليهم بالعقاب الابدي ولا خطر له انه كما قل عدد الملائكين الذين يطرحون في جهنم لكونوا عبرة لغيرهم تزيد سعادة الطالعين وما احتججه سوى سفسطة باردة لا تدثها نار جهنم

ولا داعي للرجوع الى العصور الغابرة حتى يبين ضعف الفلسفة النظرية فان أدلة النظرين في عصرنا هذا ليست القوي من أدلة اسلافهم لدى العقول التي تقف عند حد المنقول ولقد رأيت مثالا لشدة المنقول عن الفلسفة النظرية في رسالة لورد رين سرفت . ابتدأها باخبار وردت في الصحف السابقة من ذلك الغير التالي

جون كوركويدان كاتب في عمل تجاري طاف في المدينة من طرف الى طرف ماشيا على الثلج يفتش عن عمل يعمل به وزوجته واولاده الستة بلا طعام وقد أمروا بالخروج من البيت الذي هم فيه لانهم لم يدفعوا اجرة فالتفت اليهم بجرعة من الحامض الكربوليك . أخرج منذ ثلاثة اسابيع من الحفل الذي كان يعمل فيه لانه مرض فانتق في مرضه كل الدرهمات التي كان قد وفرها واستخدم اسم في جرف الثلج من الشوارع ولكنه كان لا يزال ضعيفا خائرا القوي فطرده الوكيل بعد ما اشتغل ساعة فعاد يفتش عن عمل يعمل فيه ولم يجد ورجع الى بيت في الماء مصدوح القلب لوجد زوجته واولاده بلا طعام والاعلان بالخروج من البيت ملمس على بابي فتحرج الدم في الصباح

قال المترسوفت ان انامي الآن حوادث كثيرة مثل هذه فملا مجلدا كبيرا وقد اقتبست منها ما تقرر به احوال هذا الكون . فقد قال احد الفلاسفة حديثا ان وجود الشر في العالم شرط لازم لكامله وقال آخرون هؤلاء المتكبرين يزدون كمال العالم . هذا ما يقوله الفلاسفة الطامعون الكاسون الجانسون على بساط الراحة ويغذونه دليلا على القدرة والرحمة ونحن لا نعلم من امر هذا الكون غير ما نراه في ارضنا وتياس التمثيل يقتضي ان يكون الكون كله مثل هذه الارض ولكن الظاهر ان الفلاسفة يتركون الحقائق المحسوسة التي يرونها بيوتهم ويسونها بايديهم ويشبهون بفروض يفرضونها واهام يخلقونها

وتعترف المترسوفت الى اكثر من ذلك وحسب الاديان كلها من قبيل العبث . وقال الاستاذ جمن ان هذا هو معتقد كثيرين من الباحثين في الفلسفة الآن ولولم يلقوا في نظريتهم مبلغ المترسوفت وكل باحث منهم يلتفت الى اماتذة الفلسفة ويطلب منهم ما يقع نفس المشورة الى الحقائق فيأتيو الفلاسفة النظريون بالفلسفة الدينية والفلاسفة العمليون بالفلسفة المادية فيزن الفريقين ويحدم ناقصين . ولا يليق بنا نحن الفلاسفة ان نخشع بحكمه لانه مثل حكم غيره من ذوي العقول الثانية الذين سيكون لهم القول الفصل على مر الزمان وهنا شرح الاستاذ جمن في شرح فلسفة الجديدة التي توافق بين الفلسفة الدينية والفلسفة المادية كما سترى في الجزء التالي